﴿ نحن واليازجي ﴾

الشيخ ابراهيم اليازجي في الطبقة الاولى من أدباء نصارى بلاد الشام وقد اشتهر بالعناية والبحث في اللغة العربية وانتقاد مايكتب بها وان قومه ليجلون قدره ، ولكننا كنا نراهم على فخرهم به يشكون من عجبه وصلفه ، ويألمون من غروره وتفججه ، ويقولون ان هذه الخلال حالت دون انتفاعه بعلمه وانتفاع الناس به ، وانها تحمله على أن يغمص العلماء والفضلاء الذين لا يدانيهم في علمهم (كمنشئي المقتطف) لما قد يقع في كلامهم أحياناً من كلمة دخيلة او عامية ، أو عبارة تخالف بعض قواعد العربية ، على ان كلامه لا يسلم من مثل ذلك ولكنه لانصرافه بكل همته الى التنقيح يقل في كلامه الغلط والشذوذ ، والقوم شغل بالعلوم يأخذ من همتهم حظاً هو أشرف ماتصرف اليه الهمم ، ومما سمعناه عنه في بلاد الشام وفي هذه البلاد ان غروره بنفسه في فهم اللغة جرأه على الطعن في القرآن العظيم الذي خضعت له أعناق البلغاء ، وسجدت له جباه الفصحاء ، أيام كانت البلاغة في أوج سلطانها ، والفصاحة في ريعان شبابها ، فكان لهذا الرجل في خيالنا صورة منتزعة من سيرته المسموعة غير جميلة لذلك لم تتوجه النفس الى طلب معرفته لأننا من قوم يفضلون الاخلاق الكريمة على العلوم العقلية والكونية ، بله الفنون اللغوية . ثم ان كلا منا يشتغل بالصحافة ولكن ليس بيننا وبينه مبادلة فلا نحن نطلع على مجلته ولا هو يطلع على مجلتنا الا أن يكون ذلك مصادفة واتفاقا

ثم كان في العام الماضي ان جمعية الكتاب المصرية قد ضمتنا في بعض جلساتها فرأينا صورة أجمل من تلك الصورة الخيالية رأينا لطافة ودماثة وأدبا كدنا نكذب به كل ماسمعناه لا يرضى لولا ان هذا اللقاء لا يصح ان يسمى اختباراً يحكم به على الاخلاق ، على أن اعتقادنا فيه حسن ورجحنا ان في قول الناس فيه مبالغة حتى اتفق لنا ما كشف الستار من حيث لا نحتسب

رأى القراء أننا حين شرعنا في رد شبهات النصارى على القرآن ، قلنا ان المجلة البروتستنتية نقلت هذه الشبهات من كتاب لهم « يقال ان للشيخ ابراهيم اليازجي يدا في تصحيحه أو تأليفه أو الزيادة فيه وهو عندهم أقوى طعن في القرآن » معتقدين صدق الذين قالوا لنا ذلك لنبين لصاحب تلك المجلة وغيره ان آخر سهم في كنانتهم طائش وان ما ارتضاه أعلمهم باللغة وعده طعنا في القرآن ليس بأمثل مما يهذي به اجهلهم فهو دليل

على سوء قصده والا فعلى جهله ، ولكنني حفظت لليازجي حق ذلك الاجتماع القليل فأوردت الرواية بصيغة المجهول التي تشعر بالشك (يقال) ثم اني لم أكن راضيا عن نفسي تمام الرضى بما نشرته وأنا أشبه بالمضطر مني بالمختار لأن مدافعة المشاغبين الذين يطعنون في الدين من الفروض الاسلامية الكفائية اذا لم يقم بها أحد يكون جميع المسلمين العارفين عاصين لله تعالى . وقد لقيت بعد أيام من صدور المنار صاحبا لي وللشيخ ابراهيم فأخبرني بأنه استاء مما كتبت وأنكر ما نسب اليه . فقلت له ان أحب شيء الي ان أجد سند الإعلان براءته وحسبي في ذلك ما نقلت انت عنه واني سأبرئه في أول جزء يصدر من المنار . فقال لا تعجل حتى ترى ما يكتب فان الذي أطلعه على المنار أغراه بالرد عليه والاغلاظ له ثم جاءني صاحب آخر بما كتبه فاذا هو قد أعاد لي تلك الصورة التي صورها الناقلون الاولون

أكبر الرصيف أمر تلك الكلمة (يقال . . .) إكبارا حتى مثلها القارئ كلامه بصورة جبل عظيم يريد ان ينقض على العالم فتنقض معه المعاقل والصياصي : وتشيب لهوله النواصي ، وعدها من « الفوضى القلمية في هـذا القطر وانقطاع كل عقال فيه حتى أصبح كل شيء مباحا وصار الكاتب اذا هجس في صدره خاطر متخرص (كذا) أوهمس بسمعه قول مرجف لا يلبث ان ينشره بغير تثبت ولا فحص بشوش به الافكار ويجعله مصدراً للقيل والقال » . كأنه يرى ان ما كتبه أصحاب الجرائد الاسبوعية في الائمة الاعلام ، وفي كبار الامراء والحكام ، لايذكر في جانب تلك الكلمة في مقامه ولا تصل به الحرية الى حال الفوضى القلمية وكأنه يتوهم أن أبناء الملتين الكبيرتين (الاسلامية والنصرانية) ينتظرون سماع اسمه ونقل كلمة عنه حتى اذا ما قيل ان الشيخ ابراهيم قال كذا تضطرب الأفكار ، وتجيش الصدور ، وتستعر نيران الجدال ، وتكون كلمته موضوع القيل والقال ، ولكن الكلمة قد قيلت ولم يحفل بها أحد . وأما المنار فإنما رد عليه كما رد من قبل على ما كتبه ذلك القبطي الذي لا يعرف اسمه الامكتوبا على غلاف تلك المجلة فلا هو من العلماء ولا من الكتاب ولكنه من المشاغبين الذين ينشرون شبهات المشككين .

وقال بعد نقل الكلمة أنه وقف يقلب الطرف في هذا الكلام ويمثل أيامه وأحلامه الماضية ليتذكر عهد اشتغاله بالمناقشات الدينية . ثم استدل من الكلمة على شدة حرصنا على إلصاق التهمة به وعلى أنه مأخوذ بها إما من جهة التأليف أو من ناحية التصحيح أو من جانب الزيادة . ثم قال انا بنينا هذا الحرص وهذا الحكم بالاخذ على شهادة

«يقال» وهي شهادة ما أنزل الله بها من سلطان . وكتب ما شاء أدبه من الطعن والهجو

ولعمري ان استنباط هذه المعاني كلها من كلمة « يقال » ثم ادعاء انها هي نفسها انما جعلت شاهداً على المستنبطات ثم الاعتراف بانها شهادة لا تدل على شيء من ذلك — كل ذلك يناسب فهم ذلك المنتقد على القرآن الذي عمد الى الآيات المتناسبة الواردة في تأييد حقيقة واحدة فجعلها متعارضة متناقضة . سبحان الله ! اننا لم نكتب عنك ياعلامة اللغة الا تلك الكلمة «يقال ...» فاذا كانت لا تدل على ثبوت شيء فمن أين استنبطت كل هذه المعاني ؟ لعلك استنبطتها من الطريقة التي فسرت بها القرآن بهواك ، فسبحان من أعطاك ، أو من التمرن على مجادلة الجزويت ، فلله أنت ولله ما أوتيت ،

ثم قال اننا كنا نستطيع ان نستثبت ذلك منه مشافهة وانه كان يعتقد الى الساعة التي علم فيها بالكلمة أننا من أصدقائه — وان لم تثبت مع التعصب صداقة — وان ذلك كان يكفينا إعنات النفس في الاستخبار والاستطلاع أو كدّ المخيلة في الحدس والتكهن (كذا)

ما أشبه هذه الاقوال بتلك في الخطل والعسلطة ، أيظن الرصيف اللغوي ان تلك الكلمة «يقال ...» لم تأت الا من إعنات النفس في سؤال الكثير من الناس : هل كان لليازجي يد في كتاب كذا أم لا ؟ أو من كدّ المخيلة في التكهن ؟ ان هذا الظن من أعجب وحي الغرور . وأعجب منه أن يظن رجل مثله شاخ في اختبار الناس أن فلانا صديقه وهو لم يختبره في شيء وإنما رآه مرتين أو ثلاثا ولم يتحدث معه الا بعض دقائق . أما قوله بأنه كان ينبغي لنا الاستثبات منه فهو صواب ولكنه مختف بفروره إذ كلفنا ان نجيئه وهو يعلم أننا لا نعلم في أي ناحية من مصر يقيم وان أوقاتنا لا تسمح لنا بزيارة جميع أصدقائنا الذين يزورونا فضلا عن إضاعة الأوقات في السؤال عن غيرهم . ولعمر الحق انه لو خطر في بالنا ذلك عند الكتابة لكتبنا اليه وان كان الوقت قصيراً وانه لو كتب بعد ذلك رقعة يبرئ بها نفسه لبادرنا الى تبرئته ولكن هذا الفيظ الذي استولى عليه حتى كتب ما كتب مما كنا نجله عنه يدل على ان ما قيل عنه صحيح وإن بالغ في تنزيه نفسه عن المناقشة في الاديان فان الانسان لا يتألم مثل هذا الألم إلا اذا كان ما قيل فيه حقاً

أما الصداقة فنؤكد له القول بأنه قلما يوجد في بلاد سوريا ومصر من له أصدقاء يخلص لهم ويخلصون له مثلنا . وان أصدقاءنا من فضلاء النصارى يعرفون حرصنا الحقيقي على الوفاق بين الملل وان مدافعتنا ما يفتريه أو يموّه به القسيسون والمبشرون وأعوانهم على الاسلام ، مما يعيننا على الدعوة الى الوفاق والوئام ،